الحيـــاة قلنسوة....

كثيراً ما تذهب بالإنسان الأفكار، فترمى به فى عوالم كثيرة مترامية متناقضة ليس لها قرار أو مزار، ولكنها متواصلة بعيدة عن الاستقرار قريبة إلى الخيال منها إلى الواقع الحتمى، وسرعان ما يغدو الإنسان فيها نهباً موزعا. ولقد شاءت الظروف - وكثيراً ما تشاء - أن أعيش أياماً لا أدرى هل هى كثيرة أم قليلة من حياتى، وحيداً غير مرتبط برابط ولا مستقر على قرار مع صديق أو رفيق أو زميل... فهيأت لى تلك الظروف التى كثيراً ما تمنيتها أن أسبح فى عالم من التفكير يبدو لى سهلا وسرناً ومفيداً ولكنى سرعان ما أصدم بالواقع فأجده صعباً ومقفراً ومتعباً وأن تفكيرى هـــذا كان منصباً فى الإجابة على سؤال، وهو: رأى الإنسان فى الحياة، فسرحت فى هذا السؤال مفكراً دون أن أرجع منـــه إلى مرجع، أو يشاركنى فيه تفكير إنسان آخر أو أطلب مساعدة أى كان فوجدت نفسى حائراً مضطربا لا يقر لى رأى ولا أصل إلى نتيجة تكون ثمرة لتفكيرى هذا، ولكن النتيجة كانت الاعياء والشكوك والسهر بعد أن كنت راجيا أن أجد للحياة تعليلا أو تعريفا شاملا متماسكا ومتجانسا يحيط به الإنسجام، والحيرة هذه اضطرتنى إلى أن أطرح هذا الطلسم الغامض المتعب على بساط البحث بين الزملاء والأصدقاء والإخوان والرفاق، وبين كل قريب أو بعيد، سواء كانت لى رابطة به أم لا، لعلنى واجد ضالتى المنشودة. فتسنى لى أن ألتقى بأناس مختلفى المشارب ومتعددى الطباع متفاوتى المراكز والمعيشة والأذواق... قابلت الطالب فى كليته، والعامل فى عمله، والتاجر فى متجره، والطبيب فى عيادته، والمحامى فى مكتبه، والصانع فى مصنعه، وطرحت سؤالى على أكثر من واحد لكل مهنة من تلك المهن، ولكنى اصطدمت بالواقع، فوجدته مراً علقما حينما تعذر على أن أحصل من هؤلاء جميعا على تفسير للحياة، كحياة للجماعة، والبشرية جمعاء، بل وجدت لكل نظرته فى حياته، منعزلا معها انعزالا كليا، وما تلك النظرة إلا صادرة من حيـــاته نفسها التى يحياها، وما هى إلا انعكاس لطبيعته ومحيطه وبيئتـه وطراز معيشته، وإن ذلك شىء مسلم به ولا فرار منه لتفسيرهم هذا وإنه لصحيح - كما أظن - وكما يقررونه هم أنفسهم.

وإنى لأجد من الأجدى والأنفع، أن أعرض بعض الأجوبة الخفيفة والظريفة، التى حصلت عليها من هـــذا وذاك ومن هذه وتلك... فقد أجابتنى إحدى الزميلات على سؤالى بأن عرضت الحياة بالنسبة للإنسان وبالأحرى للبشرية جمعاء - على ما تزعم الزميلة المحترمة - بأن قالت: أن يعيش الإنسان ساعته. وذكرت الكلمة المشهورة: «ولك الساعة التى أنت فيها»، ونسيت زميلتى أنه ما ذلك القول إلا قولا يفسر تفسيراً محدوداً لحياتها وحياة الأناس الذين يعيشون عيشتها. ومهما يكن من أمر فإنه رأى ليس بجديد علينا، وجمعتنى الصدفة مع عامل ميكانيكى يكثر اللغو ويتصنع الحديث، ويرتدى ملابسا خاصة بعمله، فتجرأت على صاحبنا الثرثار وألقيت عليه سؤالى بدون تردد أو تراجع. وقد أسرع بالجواب بدون امتعاض، بل بكل طلاقة ولباقة قائلا: «إنما الحياة لعب ولهو». وعلى ما أظن أنه كان فى حالة طبيعية على ما يظهر من جوابه. وقد سمعت من غير هذا كثيراً من الأجوبة المتضاربة المتناقضة فوجدت فى بعضها الظرافة والخفة ووجدت فى بعضهـا الآخر الجد والتزمت. ومن الأقوال التى أعجبتنى قول الملحق الثقافى فى إحدى مفوضيات الدول العربية حيث أفاد بأن الحياة «تعب لذيذ». وقد شاء الحظ أن ألتقى بطالب إيرانى بكلية الطب وطرحت عليه سؤالى المعهود، فأجابنى بأن «الحياة قلنسوة» وإن للقلنسوة عدة معان، منها لباس يستعمل كغطاء للرأس يسمى بهذا الاسم، ومعنى آخر وهو المهم بالنسبة لصاحبنا الدكتور الناشىء وهو رأس جذر نباتى على شكل قلنسوة، ولهذا الجذر فلسفة علمية فيها ما يشبه حياة الطالب المذكور، وحياة من يعيشون عيشته. وهو أن هذه الجذور سرعان ما تشق طريقها فى التربة مهما كان نوعها لتحصل على غذائها الذى يكفل لها عيشها... ولا أدرى لماذا اخترت هذا الرأى عنوانا لكلامى هذا؟ ربما لكونه ظريفا ومحظوظاً!!

وإنى أطلب من القراء المحترمين بأن يكتبوا لى برايهم عن الحياة وبذلك أكون شاكراً لهم فضلهم، للحصول على آراء كثيرة قيمة ربما أكون حياتى منها وأرجو ألا أكون متطفلا بذلك الطلب...

حميد جبرى السامر
كلية التجارة - جامعة فؤاد